مفاهيم لسانيات النص لدى الطاهر بن عاشور.نماذج من التحرير والتنوير

Concepts of linguistique textuelle at Tahar Benachour .examples in El Tahrir wa El Tanwir

بوزيان حمزة

hamzachoupot@gmail.com

قسم اللغة والأدب العربي، كلية الآداب والفنون، جامعة وهران1 أحمد بن بلّة (الجزائر)

تاريخ الإرسال: 2019/02/16 تاريخ القبول:2019/02/28 تاريخ النشر: 2019/03/19

ملخص: تَيقَّنَت المعارف الحديثة أنّ لسانيات الجملة أضحت تَعجز عن مواكبة الرُقيّ المعرفي العلمي الذي سَطَع منذ طليعة القرن العشرين، وينطوي تحت هذا الرُقيّ المعرفي العلمي كلّ العلوم اللغوية الحديثة من لسانيات وسيميائية وأسلوبية نظرية التلقّي، ولذلك كان ضروريا على هذه العلوم القيام بطفرة من لسانيات الجملة إلى ما يسمّى بلسانيات النص، ويقصد الدارسون الغربيون باللّسانيات النصّية العلم الذي يهتمّ بدراسة بنية النصوص معتمدا على معاييرَ أهمّها الاتّساق ومرتكزاته. من هذا المنطلق، يسعى هذا البحث إلى القراءة في أَجَلّ تلك المفاهيم المرتبطة بلسانيات النص كالاتّساق ومرتكزاته، والّتي يزعم الغربيون أنّها من بنات أفكارهم، محاولين تقصّي تلك المرتكزات لدى الطاهر بن عاشور في تفسيره التحرير والتنوير بغية إبراز أسبقية العرب في هذا المنوال.

الكلمات المفتاحية: لسانيات النص؛ الاتّساق؛ الإحالة؛ الحذف؛ العطف؛ التكرار؛ الطاهر بن عاشور؛ التحرير والتنوير.

ABSTRACT : Nowadays we can say that linguistics textuelle is considered as one of the most Important topics especially when discover from the modern studies that linguistics of the sentence is no longer able to face the scientific development and the Improvement of knowledge that occurred in the beginning of the twentieth century. The modern linguistic approaches should include and deal with the stylistic, the semiotic, and reception theory. As a result the accidental studies were obliged to move from the linguistics of the sentence to what we call it the linguistics of the text, for them linguistics textuelle mean that specific science that gives great importance to the structure, the consistency and its foundation. Through this study we aim at shedding light on the various notions that are related to the linguistics of the text such as the consistency and its basis. In fact the occidental researchers pretend that they were the first to introduce the notion of the linguistics, they even try to pick up data and information from Mr. Tahar Benachour work entitled El Tahrir wa El Tanwir, a book interpreting the Koran, so as to show that the Arabs were really the leaders in this field.

Keywords: **(**Linguistiques textuelle ; Cohésion ; Référence ; Ellipsis ; Récurrence ; Tahar Benachour ; El Tahrir wa El Tanwir.

مقدمة:

إنّ موضوع لسانيات النص من أهمّ الموضوعات اللّسانية في الوقت الرّاهن، لاسيما بعد أن أدركت الدراسات الحديثة أنّ لسانيات الجملة أصبحت لا تَقوى على مُسايرة الازدهار المعرفي العلمي الذي بَزغَ منذ مطلع القرن العشرين، ويندرج ضمن هذا الازدهار المعرفي العلمي المناهج اللسانية الحديثة من تداوليةٍ وأسلوبيةٍ وسيميائيةٍ وجمالية التلقي وغير ذلك، لذا كان لزاما على هذه الدراسات الغربية القيام بوثبة من لسانيات الجملة إلى منهج آخر يسمّى بلسانيات النص، التي عُدَّت علم يستهلّ بالنص ويختتم به أي أنّه يتكفّل بدراسة بنية النصوص.

ولقد تباينت آراء الباحثين في ترجمة مصطلح لسانيات النص وتراكمت، شأنه في ذلك شأن كلّ المصطلحات المترجمة، فمنهم من يترجمه بنحو النص، ومنهم من يسمّيه بلسانيات النص، والبعض الآخر يناديه بعلم اللغة النصّي[1]، ولكن تجدر الإشارة إلى أنّ هذه الأسماء كلّها تصبّ في قالب واحد هو الالتزام بدراسة هيئة النصوص، التي تقضي بأنّ النص هو وحدة لغوية سِمته الأساسية هي الربط.

والمتأمّل لما أثمره الباحثون الغربيون يجد أنّ اجتهادهم قد انْفَسَح في مجال لسانيات النص، ابتغاء توضيح آلياته التي تجعل من النص متماسكا ومُحْكَما من جهة، ولما لهذه الآليات من تأثير إيجابي على متلقّي الخطاب قراءةً أو سماعا كتيسير فهمه وكشف غموضه ورفع لبسه من جهة أخرى.

ومن ضمن الآليات التي تحتلّ موقعا مركزيا في الدّراسات اللّسانية النصية نذكر الاتّساق، باعتباره مظهرا من مظاهر ربط أجزاء الخطاب النثري أو الشعري، وقد اعتبره الباحثون من أبرز المعايير النصّية وأكثره شيوعا لما له من ميزة في الربط المباشر.

ويقصد اللّسانيون بالاتّساق ترابط الجمل في النص مع بعضها بعضا بوسائل لغوية معيّنة[2]، أي أنّ الاتّساق يبحث عن العلائق الذي تسعى في إحكام الشكل الداخلي للنص، والمتتبّع للترابط بالاتّساق يرى بأنّه يشتغل بوشائجَ تظهر في النص، حَصَرَها محمد خطابي في الإحالة، الاستبدال، الحذف، الوصل، والتكرار[3].

أمّا لو ولّينا وجوهنا شَطْر العرب، ونخصّ بالذّكر مفسّري القرآن الكريم كتفسير التحرير والتنوير لصاحبه ابن عاشور، فسنجده قد أحاط في تفسيره لخطاب الله تعالى بجلّ آليات الاتّساق، وبيّن دورها في وَصْلِ الآي القرآني شكلا ومضمونا، بل واستعان بها لفهم القرآن الكريم، علما أنّنا سنجدها لا تختلف عن المفاهيم الغربية التي رَوَّج لها علماء لسانيات النص ويَنسبونها إلى أنفسهم، ممّا سيثبت أسبقية ابن عاشور في ممارسة تلك الدراسات اللّسانية النصّية قبل الغربيين، أو إن شئت قلْ أنّه قد نَبَّأ بهذه المعرفة العلمية قبل ميلادها.

من هذا المنطلق سنحاول إظهار أسبقيّة علمائنا العرب في الكثير من القضايا اللغوية الغربية، كإسهام الطاهر بن عاشور في الدّراسات اللّسانية النصّية، فدعونا نقوم بالتّنقيب في آلية الاتّساق من هذا الحقل المعرفي عند الغربيين ثم البحث عنه بحذافيره عند ابن عاشور، مع الوقوف على أوجه التوافق والتباين بينه وبين روادّ هذه المدرسة.

1. الاتّساق ومرتكزاته:

ذكرنا سالفا أنّ الاتّساق يشتغل على الربط النصّي بوشائجَ تظهر في شكل النص أهمّها:الإحالة، الحذف، العطف، التكرار، فدعونا نبرز هذه العناصر:

1.1. الإحالة:

تمثّل **الإحالة** في جوهرها مفتاحا هامّا لفهم اللسانيات النصّية، ولقد عني جميع علماء النص بها لما لها من دور في تحقيق تماسك النص، فهذا الأخير لا يُفهم في بعض الأحيان إلّا من خلال معرفة عَوْد الضمير أو اسم الإشارة أو غيرهما الذي ورد فيه،كما أنّ المتلقي قد يكتفي بمرجعية العنصر الإحالي لمعرفة قصدية المتكلم ونيّته ومعنى الكلمة.

ولقد ورد هذا المصطلح لدى **ميشال شارول- Michel Charolles** - معرّفا إياه بقوله:

«Le fait de désigner par une expression référentielle un objet spécifique dans le monde[4] »

والذي يعنيه بتعريفه أنّ الإحالة هي أن يومئ تعبير ما على أمر آخر في العالم، ويقصد بإشارة التعبير على **العالم** كونه يقصد بالعالم السياق الوارد فيه، وهنا يحتاج القارئ الإحاطة بظروف الكتابة للكشف عن العنصر المختصر حتى لا يقع في لَبس، أو رُبّما يعني بالعالم أن يعود التعبير على كلّ شيء من المخلوقات، وعدم اختصاصه بشيء دون غيره.

ونُلفي وصفا أدقّ للإحالة لدى دي بوجراند الذي يرى أنّه إذا كانت الإحالة Référence هي العلاقة بين العبارات والأشياء objects ، والأحداث évents ، والمواقف situations في العالم الذي يدلّ عليه بالعبارات ذات الطابع البدائي في نص ما إذ تشير إلى شيء ينتمي إلى نفس عالم النص، أمكن أن يقال عن هذه العبارات أنها ذات إحالة مشتركة Co Référence .[5]

فالذي نستشفه من قوله هو أنّ الإحالة عبارة عن كلمات لغوية لا يُفهم معانيها إلا من خلال سياقها الواردة فيه، أي أنّ معنى الكلام يُفهم من خلال علاقاته بالكلمات السابقة أو اللاحقة لها، أو سياقها غير اللغوي كالمناسبات والظروف التي يحوم حولها النص لحظة كتابته أو قراءته.

وتنقسم الإحالة إلى نوعين رئيسيين **مقامية Exophorie ونصية Endophoric.**

1.1.1. **الإحالة المقامية Exophorie Référence** :

وهذا باعتبار أنّ اللغة دائما تحيل إلى خارج النص، ويسمّيها **دي بوجراند** بالإحالة لغير المذكور **exophora** ويرى أنّها تعتمد في الأساس على السياق ومقتضى الحال أي خارج حدود النص والعالم وتأويلها في عالم النص سيحتاج تركيزا في عالم الموقف الاتصالي لهذا العامل النصي[6].

وتقوم هذه الإحالة في صنع النص كونها تربط السياق بالمقام، كما أنّها تتطلّب من المتلقّي أن يلتفت إلى خارج النص كإحاطته بالظروف أو المناسبات أو الأحداث المحيطة بالنص؛ كلّ هذا حتى يتعرّف على العنصر المحال إليه، ومن هنا نرى مدى أهمّية **الإحالة المقامية** في اتساق النص مع مقامه.

2.1.1. **الإحالة النصّية:Endophoric Référence**

وهي إحالة إلى داخل النص، أي أنّ العلاقات الإحالية تكون داخل النص، سواء أكان بالرجوع إلى ما سبق أم بالإشارة إلى ما سوف يأتي داخل النص، وهي عكس الإحالة الخارجية **Exophora** [7].

وفي هذا النوع من الإحالة يتطلّب على المتلقّي أن ينظر داخل النص، ويبحث عن هذا الشيء المحال عليه، وهي بدورها تنقسم إلى:

أ- الإحالة القبلية Anaphoric Référence :وتسمّى أيضا الإحالة بالعودة أو على السّابق ويقصد بها إشارة عنصر إلى ما يتقدّمه من العناصر اللغوية المختلفة، وهي أكثرها استعمالا في النص اللغوي، ومن أمثلتها:ارسم شجرة فيها عصفور، فضمير الغيبة الهاء يعوّض لفظة الشجرة، ويربط بين الجملتين، ويرى هاليداي ورقية حسن أنّ ضمير الغيبة بأشكاله المختلفة من أكثر العناصر الإحالية التي تسهم في الربط بين النص والإحالة إلى ما قبل[8].

ب- الإحالة البعدية Cataphoric Référence :وتسمّى أيضا بالإحالة على اللّاحق، أي بالعودة على عنصر مذكور بعدها في النص.

ويعرض الباحثان هاليداي ورقية حسن وسائل إحالية، وهي ألفاظ يُستند عليها لتعيين الإحالة، ولقد تناولها محمد خطابي في كتابه بشيء من التفصيل أهمّها:

أ. **الضمائر:**

وتنقسم إلى أدوار الكلام (**Speech roles**) وتندرج تحتها جميع الضمائر الدالة على المتكلم، والمخاطب وهي إحالة إلى خارج النص في الغالب، ومن هذه الضمائر(أنا-نحن) للمتكلم، (أنت-أنتم) للمخاطب.

أمّا الضمائر التي تحيل إلى داخل النص، وتؤدي دورا هامّا في اتساق النص فهي تلك التي يسمّيها الباحثان أدوارا أخرى **Other roles**، وتندرج ضمن ضمائر الغيبة(هو-هي-هما-هم-هنّ).

ب. **أسماء الإشارة:**

ويقصد بها أسماء الإشارة المكانية (هنا-هناك.....)، والزمانية (الآن-غدا....)، والعناصر المعجمية التي تقوم بعمل الشارة (هذا-هؤلاء.....)، أو حسب البعد (ذاك-ذلك.....) [9].

انطلاقا من نظرة الغربيين، نرى أنّ الإحالة تعتبر أداة لسانية مهمّة، تُوجب لمحلّل الخطاب أن يتمكّن منها ابتغاء كشف اتّساق النص، وهي تتمثّل في عودة اللّفظ على عنصر لفظي آخر، وأهمّها الضمائر وأسماء الإشارة، وهي نوعان إحالة مقامية، وإحالة نصية إما قبلية أو بعدية.

هذا حظ الإحالة عند قائليه الغرب، فما ظنّك بصاحب التحرير والتنوير من خلال تفسيره لكلام الله جلّ شأنه؟

ألقِ نظرك حيث ما شئت من هذا التفسير، ثمّ استقْصِ نسبة ما حواه من هذه الآلية –**الإحالة**- فثِقْ أنّك ستجد ابن عاشور قد فصّل فيها وفَطِن لدورها في ربط النص، ولذلك سنحاول أن نبرز أهمّ ما يجلب نظرنا في هذا التفسير من إحالةٍ بغية إثبات الأسبقية لابن عاشور حول هذا المصطلح.

والمتأمّل لتفسير التحرير والتنوير يرى أنّ صاحبه اعتنى بالإحالة في تفسيره لكثير من الآيات القرآنية، كما أنّ نظرته لا تختلف عن الغربيين حول معنى الإحالة، أي أن يعود ضمير أو اسم إشارة على شيء آخر سواء داخل النص أو خارجه، كما قد تكون الإحالة إمّا قبلية أو بعدية، إلّا أنّه يرى أنّ نظرة القارئ تتباين في معرفة إلى من تحيل بعض القرائن اللغوية القرائن اللّغوية، كما أنّه لا ينبغي أن نهمل السياق وإلا وقع المتلقّي في حيّز الغَلط في معرفة عود الضمير، ويمكن أن نمثّل لذلك بما يأتي:

تفسيره لقوله تعالى من سورة البقرة: **"ألم ذلك الكتاب لا ريب فيه"**، فقد ارتكن في تفسيره لهذه الآية إلى رأي الزمخشري الذي **جوّز على احتمال أن تكون حروف ألم مسوقة مساق التهجي لإظهار عجز المشركين عن الإتيان بمثل بعض القرآن، أو أن يكون اسم الإشارة مشارا به إلى ألم باعتباره حرفا مقصودا للتعجيز"**[10]، أي أنّ اسم الإشارة **ذلك** في هذه الآية يحيل إلى حروف التهجي **ألم** وبالتّالي نوعها إحالة قبلية ذات المدى القريب.

ولكنّه لا يستبعد أن يحيل هذا الاسم إلى إحالة مقامية، فيكون المطلوب بذلك أي ذاك القرآن وهذا باعتبار حروف التهجي جزءا من القرآن الكريم، ويعضد هذا الكلام قوله:**"إنّ كل ما نزل من القرآن فهو المعبر عنه بأنه القرآن وينضمّ إليه"**[11].

وعلى كل الاحتمالات التي أعرب عنها ابن عاشور، والتي لا تتنافى مع بعضها البعض، نجد أنّه قد اتّكأ على عود اسم الإشارة وهو ما سمّاه الغربيون الإحالة، واعترف بدورها الهامّ للتعرف إلى ما تحيل له العناصر الإحالية من جهة، ومن جهة أخرى فقد عوَّل عليها في تفسيره للقرآن الكريم، لما لها من أهمية كبيرة في إعانته على فهم الغامض من الآي القرآني، ومن الأدوات التي اهتمّ بها كثيرا الضمائر و أسماء الإشارة، ومن شواهده أيضا تفاسيره التّالية:

قوله تعالى:**"أولئك على هدى من ربهم"**، فإنّ اسم الإشارة أولئك متوجه إلى المتّقين الذين أجرى عليهم من الصفات ما تقدّم، وبالتّالي اسم الإشارة تعود على ذات مستحضرة من الكلام بعد أن يذكر من صفاتها وأحوالها ما ينزلها منزلة الحاضر قي ذهن المتكلّم والسامع[12].

نرى أنّ ابن عاشور يرى أنّ نوع الإحالة باسم الإشارة في الآية السّابقة نصية أي يُحيل إلى داخل النص يُدرَكُ من السياق اللغوي، فالسّامع يعلم أنّ اسم الإشارة يشير إلى جمهرة المؤمنين والمتّقين الذين يتّسمون بأركان الإيمان، وكلّ تلك الأركان قد ذكرها من قبل مع المشار إليه، ثمّ إنّ اسم الإشارة **"أولئك"** يعُدُّه ابن عاشور يحيل إلى شيء بعيد عنه، وهذا ما سُمّي عند الغربيين بالإحالة ذات المدى البعيد.

قوله تعالى:**"أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى فما ربحت تجارتهم وما كانوا مهتدين"**، فالذي يراه ابن عاشور من خلال هذه الآية أنّ اسم الإشارة يحيل إلى من يقول آمنا بالله وباليوم الآخر، إلاّ أنّه غير مشار به إلى ذوات، ولكن إلى صنف اجتمعت فيهم الصفات الماضية، فاتّضحت أحوالهم حتى صاروا كالحاضرين تجاه المتلقي بحيث يشار إليهم، وهذا استعمال كثير الورود في الكلام البليغ[13].

ولما كان اختلاف عود الضمير وإحالته إلى عنصر آخر يُفضي إلى الوقوع في حيّزِ الزّلَلِ والغَلَطِ، بل وتغيير فهم القرآن الكريم، اهتمّ به صاحب التحرير والتنوير ابتغاء تجلية المضمر وإبانة المعنى الصحيح، من ذلك تفسيره لقوله تعالى:**"وبشّر الذين آمنوا وعملوا الصالحات أنّ لهم جنات تجري من تحتها الأنهار"**، يتحدث ابن عاشور عن الضمير في قوله من **تحتها**، ويراه أنّه يحيل إلى الجنّات باعتبار مجموعها المشتمل على الأشجار والأرض الثابتة فيها، وجوّز إحالة الضمير أيضا إلى الجنّات باعتبار الأشجار لأنّها أهمّ ما في الجنّات[14].

والذي يبدو من كلامه، هو أنّ الإحالة باعتبار المدى هنا تختلف عن نظرة الغربيين، كما يسعى من خلال هذا الشرح أن يؤثّر في القارئ للتَلَهُّف إلى الجنّة عن طريق الترغيب لها.

أمّا تفسيره لقوله تعالى:**"وَإِذَا لَقُوا الذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلا بَعضهُم إلى بَعض قَالُوا أَتُحَدِّثُونهُم بِمَا فَتَحَ الله عَلَيكُم لِيُحَاجّوكُم بِهِ عِند رَبّكم أَفلا تَعقِلُونَ"**، فيرى الأظهر أنّ الضمير في لقوا عائد على بني إسرائيل على نسق الضمائر السابقة في قوله **"أَفَتَطمَعُونَ أن يُؤمِنُوا"** وما بعده، وأنّ الضمير المرفوع **بقالوا** عائد عليهم باعتبار فريق منهم وهم الذين أظهروا الإيمان نفاقا أو تفاديا من مر المقاطعة والمحاجة بقرينة قوله **"آمنا"** وذلك كثير في ضمائر الأمم والقبائل[15].

و يتبيّن لنا أنّ ابن عاشور اهتمّ بالوظيفة الأساسية التي تسهم فيها الضمائر من منظور الغربيين، وهي تناسق وتماسك الآيات القرآنية فيما بينها.

قوله تعالى:**"كَذَلِكَ يُحيِي الله المَوتَى"**، يقول ابن عاشور:الإشارة هنا إلى محذوف للإيجاز أي فضربوه فحيي فأخبر بمن قتله أي كذلك الإحياء يحي الله الموتى، والإشارة هنا لشيء مشاهد لهم وليس هو اعتراضا أريد به مخاطبة الأمة الإسلامية، لأنّهم لم يشاهدوا ذلك الإحياء حتى يشبه به إحياء الله الموتى[16].

وأهمّ ما يمكن أن نستشفه من هذا القول، أنّه من أهمّ وظائف الإحالة بالإشارة هو تأدية مزية الإيجاز، هذه الوظيفة التي لم يغفل عنها الغربيون، ولهذا كان علينا لزاما أن نُنوّه بأنّ ابن عاشور لم يكن بمنأى عن هذه الوظيفة، و كان سابقا للغربيين في هذا المضمار.

2.1. الحذف: يمثّل الحذف لدى باحثي لسانيات النص مفتاحا يقوم باتّساق النص وربطه شكليا، كما يَرَون أنّ له ميزة تتمثّل في تجسيد البعد الإيحائي الذي يقوم به الحذف بدل الذكر أو الإطناب.

وقد عَرَضَ الغربيون معناه الاصطلاحي تحت مصطلح Ellipsis، ويعرّفه نيكولاس بوزي **Nicolas Beauzée** في موسوعته **L'Encyclopédie méthodique:**

« L'ellipse est proprement une figure de syntaxe, par laquelle on supprime quelques mots, nécessaires à la plénitude de la phrase, mais assez indiques par ceux qui sont énoncés pour ne laisser aucune incertitude.»[17]

الذي يعنيه بكلامه هذا، هو أنّ الحذف شكل مهمّ لبناء الجملة؛ إذ من خلاله يمكننا إزالة بعض الكلمات الضرورية دون أن يختلّ المعنى، غير أنّها تكون مشارة إليها بكلمات أخرى ملفوظة لتفادي ترك اللبس، فهو يرى أنّ الحذف جمالية مهمّة لبناء الجملة.

أمّا دي بوجراند فيعرّفه بأنّه:**"استبعاد العبارات السطحية التي يمكن لمحتواها المفهومي أن يقوم في الذهن أو أن يوسّع أو أن يعدّل بوساطة العبارات الناقصة."**[18] ويفهم من كلامه أنّ الحذف يقوم على اجتناب الحشو، وإزاحة الألفاظ الزائدة التي يمكن للعقل استيعابها من دون ذكرها.

وقد اقترح الباحثان هاليداي ورقية حسن ثلاثة أنواع للحذف نلخصها بطريقة تفصيلية فيما يلي:

1-حذف الاسم:ويعني الحذف الاسمي عندهما حذف اسم داخل المركب الاسمي، ومثال ذلك:

Which hat will you wear ?-this is the best

(أي قبعة ستلبس؟هذه هي الأحسن).

واضح أن **القبعة** قد حذفت في الجواب، وكما يقرّر الباحثان ذلك فإن الحذف الاسمي لا يقع إلا في الأسماء المشتركة (Common Nouns).

2-حذف الفعل:ويُقصد بالحذف الفعلي حذف الفعل داخل المركّب الفعلي، ومثال ذلك:

Have you been sweming ?-yes, i have

(هل كنت تسبح؟نعم،فعلت)

3-حذف الجملة أو شبه الجملة:وهو الحذف داخل الجملة أو شبه الجملة، ومثال ذلك:

How much does is cost?-

(كم ثمنه؟-خمس جنيهات)[19].

ولقد اهتم ابن عاشور بالحذف لِما له من مَزِيّة في تأدية الوصل بين كتاب الله عزّ وجل والقارئ، ولِما له من فضل في تفادي تكرار كلمات بعينها، ويرى أنّ القرآن الكريم يزخر بفيض من مواطن الحذف، سواء كان حذف الاسم أو الفعل أو الجملة، بل نجده أضاف نوع رابع من الحذف نحسب بعض الغربيين من أمثال هاليداي ودي بوجراند غَفَلوا عنه ولم يذكروه في كتبهم وهو ما يسمّى بحذف حرف العطف، ولا يقتصر غرض الحذف عنده في الإيجاز فقط بل تعدّى ذلك إلى تحقيق الترابط بين آي القرآن الكريم وتحقيق أغراض أخرى نبرزها فيما يلي:

قوله تعالى: **"يَكَادُ البَرْقُ يَخْطَفُ أَبصَارَهُمْ كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُمْ مَشَوا فِيهِ وَإِذَا أَظلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا وَلَو شَاءَ الله لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبصَارِهِم إِنّ الله عَلى كُلّ شيء قَدِير"**، فالظاهر أنّ أضاء هنا فعل متعدي ومفعول أضاء محذوف لدلالة **مشوا** عليه وتقديره الممشى أو الطريق أي أضاء لهم البرق الطريق، وكذلك **أظلم** أي وإذا أظلم عليهم البرق الطريق بأن أمسك وميضه.....وقوله تعالى: **"ولو شاء الله لذهب بسمعهم وأبصارهم"** مفعول شاء محذوف لدلالة الجواب عليه وذلك شأن فعل المشيئة والإرادة ونحوهما إذا وقع متصلا بما يصلح لأن يدل على مفعوله[20].

فالذي يتّضح من هذا التفسير هو أنّ ابن عاشور شَرَط في الحذف أن يبقى ما يومئ إليه حتى يقع، وهذا ما لم يغفل عليه الغربيون تحت ترجمة حماسة عبد اللطيف بقوله أنّ:**" الحذف لا يتم إلا إذا كان الباقي في بناء الجملة بعد الحذف مغنيا في الدلالة كافيا في أداء المعنى وقد يحذف احد العناصر لان هناك قرائن معنوية أو مقالية تومئ إليه وتدل عليه ويكون في حذفه معنى لا يوجد في ذكره"**[21].

قوله تعالى:**"شَهرُ رَمَضَان الذِي أُنزِلَ فِيهِ القُرآن هُدى للناس وبَيّنَات مِنَ الهُدَى وَالفُرقَان"** فإنّ شهر رمضان خبر لمبتدأ محذوف تقديره **هي** أي الأيام المعدودات شهر رمضان، وحذف المسند إليه جار على طريقة الاستعمال إذا تقدم من الكلام ما فيه تفصيل وتبيين لأحوال المسند إليه فهم يحذفون ضميره[22].

انطلاقا من حديث ابن عاشور حول هذا القسم من الحذف، نرى أنّ هذا الأخير له علاقة بعَوْد الضمير أي الإحالة؛ إذ أنّ الحذف لا يتمّ في هذا المقام إلا إن دلّت عليه قرينة قبلية وهذا ما يؤدي إلى اتساق النص،وهذا الذي أشار إليه الغربيون كقول هاليداي ورقية حسن:**"أن الحذف علاقة داخل النص،وفي معظم الأمثلة يوجد العنصر المفترض في النص السابق،وهذا يعني أن الحذف عادة علاقة قبلية"**[23].

قوله تعالى:**"حَافِظُوا عَلى الصَلَوَاتِ وَالصَلاةِ الوُسطَى وَقُومُوا لله قَانِتِينَ،فإن خِفْتم فَرِجَالا أو رُكْبَانا"**، ومعنى الآية صلّوا على أيّ حال كان، رجالا أو ركبانا، يعني مستقبلي القبلة و غير مستقبليها[24].

فالذي يبدو من حديثه أنّ الكَلِمَتَيْن رجالا و ركبانا حُذف الفعل الذي تقديره **فصلوا** وهذا التقدير يفهم من السياق، حتّى أنّ القارئ لا يجد مشقّة في فهم مضمون الآية وتقدير المحذوف.

وهذا الذي أشار إليه دي بوجراند بقوله أنّ الحذف استبعاد للعبارات السطحية التي يمكن لمحتواها المفهومي أن يقوم في الذهن أو أن يوسع أو يعدل بوساطة العبارات[25].

قوله تعالى:**" فَقَالَ أَنْبِئُونِي إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ،قَالُوا سُبحَانَكَ لا عِلمَ لَنَا إِلّا مَا عَلّمْتَنَا إِنَّكَ أَنتَ العَلِيم الحَكِيم."**يرى ابن عاشور أنّه تمّ حذف حرف العطف الفاء في قوله:"**قالوا سبحانك...**"، وهذه الآية

من ضمن المواطن التي قد يُستغنى فيها بذكر حرف العطف لأنّه قد ذكرت قبلها أداة التوكيد **إنّ**، ولهذا تَم ّ الربط بين الجملتين بحذف حرف العطف **الفاء وهو من سنن العرب**[26].

وفي هذا الحذف يقول عبد القاهر الجرجاني في كتابه دلائل الإعجاز أنّه من شأن إنّ إذا جاءت على هذا الوجه **(أي أن تقع إثر كلام وتكون لمجرّد الاهتمام)** أن تغنى غناء الفاء العاطفة (مثلا)، وأن تفيد من ربط الجملة بما قبلها أمرا عجيبا فأنت ترى الكلام بها مقطوعا موصولا[27].

3.1. العطف:اعتُبِر العطف في جوهره شطرا مهمّا لفهم الترابط النصّي، ولقد اهتمّ جميع علماء النص به اهتماما خاصّا كونه يسعى بوصل المتتاليات الجملية فيما بينها ممّا يخلق اتّساقا في النص ليضمن استمراره، ولقد اعتبره **كريستال أوّل وسيلة من وسائل التماسك النصي**[28].

ويرى دي بوجراند أنّه يشير إلى العلاقات التي بين المساحات أو بين الأشياء التي في هذه المساحات (...)، ويشير أيضا إلى مكان اجتماع العناصر والصّور وتعلّق بعضها ببعض في عالم النص[29]، أي أنّ العطف يومئ إلى الارتباطات القائمة بين عناصر متشتتة من النص، وغرضه من تعلّق بعضها ببعض في عالم النص اتّصال جمل النص من أجل تحقيق وحدة لغوية.

وقد ذكر بعض الغربيون حدّا للعطف تحت اسم الوصل بأنّه تحديد للطريقة التي يترابط بها اللاحق مع السابق بشكل منظم، وأنّ النص عبارة عن جمل متعاقبة خطّيا، ولكي تدرك كوحدة متماسكة نحتاج إلى عناصر رابطة متنوّعة تصل بين أجزاء النص[30].

ولم يكن ابن عاشور ببعيد عن دور أدوات العطف في ربط الآي القرآني ممّا يجعله يبدو كالبنيان الواحد، وفيما يلي وقفات مع هذه الآلية:

قوله تعالى:**"وبَشِّر الذين آمنوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَات أنَّ لهم جَنَّات تجري من تحتها الأنهار"** فقد جعل جملة **وبشّر** معطوفة على مجموع الجمل المسوقة لبيان وصف عقاب، فعطف مجموع أخبار عن عقاب الكافرين والمناسبة واضحة مسوغة لعطف المجموع على المجموع، وليس هو عطفا لجملة معينة على جملة معينة الذي يطلب منه التناسب بين الجملتين في الخبرية والإنشائية. وقد جعل السيد الجرجاني لهذا النوع من العطف لقب عطف القصة على القصة لأنّ المعطوف ليس جملة على جملة بل طائفة من الجمل على طائفة أخرى، ونظيره في المفردات ما قيل إن الواو الأولى والواو الثالثة في قوله تعالى **"هو الأوّل والآخر والظّاهر والباطن"** ليستا مثل الواو الثانية لأنّ كلّ واحدة منهما لإفادة الجمع بين الصفتين المتقابلتين، وأمّا الثّانية فلعطف مجموع الصفتين المتقابلتين اللتين بعدها على مجموع الصفتين المتقابلتين اللّتين قبلها ولو اعتبر عطف الظاهر وحده على إحدى السّابقتين لم يكن هناك تناسب، هذا حاصله وهو يريد أنّ الواو عاطفة جملة ذات مبتدأ محذوف وخبرين على جملة ذات مبتدأ ملفوظ به وخبرين، فالتّقدير وهو الظاهر والباطن وليس أنّ المبتدأ فيها مُقدَّر لإغناء حرف العطف عنه بل هو محذوف للقرينة أو المناسبة في عطف جملة الظاهر والباطن على جملة الأول والآخر[31].

فابن عاشور يفسّر الآية برأيٍ هام، وهو أنّ الله بعد أن ذكر جزاء الكافرين عطف ذلك بذكر جزاء المؤمنين، وهذا يعتبر من باب ذكر الشيء ونظيره. ثُمّ إن هذه المسألة تندرج ضمن نحو النص لا نحو الجملة،

ودليل ذلك قوله:"**عطف مجموع أخبار عن عقاب الكافرين والمناسبة واضحة مسوغة لعطف المجموع على المجموع، وليس هو عطفا لجملة معينة على جملة معينة**"[32]، وهذا الذي أشار إليه الغربيون كقول هاليداي ورقية حسن أن نحو النص ما هو سوى دراسة الاعتبارات اللغوية الرابطة بين جمل لغوية في متتالية خطية، ومن بين هذه الاعتبارات العطف[33].

ويظهر الاختلاف بين الغربيين وابن عاشور حول العطف فقط في التسمية؛ إذ أنّ الغربيين يدرجون هذا النوع من الربط - **العطف** - ضمن نحو النص أمّا ابن عاشور فيرى أنّ ربط مجموعة من الجمل على مجموعة من الجمل بأداة العطف يسمى **بعطف قصة على قصة.**

قوله تعالى:"**وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلاثَةَ قُرُوء وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَن يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ اللهُ فِي أَرْحَامِهِنَّ إِن كُنَّ يُؤْمِنَّ بِاللهِ وَاليَوْمِ الآخِرِ وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقّ بِرَدِّهِنَّ فِي ذلك إِن أَرَادُوا إِصْلاحا**"عطف على الجملة قبلها، لشدّة المناسبة، وللاتّحاد في الحكم وهو التربّص، إذ كلاهما انتظار لأجل المراجعة، ولذلك لم يقدم قوله"**الطلاق مرّتان**"على قوله"**والمطلّقات يتربّصن**" لأن هذه الآي جاءت متناسقة، منتظمة على حسب مناسبات الانتقال على عادة القران في إبداع الأحكام، وإلقائها، بأسلوب سهل لا تسأم له النفس،ولا يجيء على صورة التعليم والدرس[34].

ولعلّ كلامه هذا يُوضّح لنا أهمّ ميزة يحقّقها العطف، وهو أنّه يجعل الكلام يمشي على نسق واحد من البيان تتعلق فيه الكلمات والجمل بعضها ببعض، من ذلك مسألة الطلاق في الآية السّابقة حتّى ولو تباينت المناسبات، وهذا الجمال التنسيقي يراه صحاب التحرير والتنوير يجلب إنصاتنا ولا تَسأم منه النفس.

4.1. التكرار:ممّا لا ريب فيه، هو أنّ التكرار اعتُبرَ من أهمّ وسائل الاتّساق، وسبب اشتغال علماء النص به كونه يعتبر أيقونة هامة تسعى إلى التضافر المعجمي على مستوى النص، وقد ذكر **كريستال** تعريفا له تحت مصطلح بأنّه:"**التعبير الذي يكرّر في الكل والجزء** repeated"[35].

ويرد التكرار في أربعة هيئات:

1. **التكرار التام أو المحض(full récurrence)**:وهو تكرار اللفظ و المعنى و المرجع واحد.
2. **التكرار الجزئي(partial récurrence)**:وهو ما يكون بالاستخدامات المختلفة للجذر اللغوي.
3. **تكرار المعنى واللفظ مختلف**:ويشمل الترادف والعبارة الموازنة، كقولنا "**لا اله إلا الله وحده لا شريك له**".
4. **التوازي(parallélisme)**:وذلك بتكرار البنية مع ملئها بعناصر جديدة[36].

يتّضح لنا أنّ التكرار يرد بأربعة أشكال:التّام أي تكرار الكلمة كما هي دون تغيير، الجزئي أي إعادة الكلمة مع شيء من التغيير في الصيغة، المعنى ويمسّ المعنى دون اللفظ، و التوازي وهو إعادة الصيغة التركيبية.

وقد ذكر ابن عاشور موضوع هامّ يتعلّق بالتكرار، وهو ما فائدة تكرار القصة في صور كثيرة؛ فنحن نعلم أنّ القرآن إيجاز كلّه ومع ذلك قد تكرّرت بعض القصص في صور كثيرة، ونجد الإجابة عن هذا السؤال في ذكره لأهمّ ما يتميّز به التّكرار من فوائد سواء في القرآن أو في كلام العرب بقوله:

أحدها:رسوخها في الأذهان بتكريرها.

الثاني:ظهور البلاغة، فإنّ تكرير الكلام في الغرض الواحد من شأنه أن يثقل على البليغ.

الثالث:أن يسمع اللّاحقون من المؤمنين في وقت نزول القرآن ذكر القصة التي كانت قد فاتتهم مماثلتها قبل دخولهم إسلامهم أو في مدّة مغيبهم، فإنّ تلقي القرآن عند نزوله أوقع في النفوس من تطلّبه من حافظيه[37].

علينا أن نُنَوّه أنّ نظرة ابن عاشور إلى فائدة التكرار لا تختلف عمّا خلّفه لنا البلاغيون وعلماء التفسير، إلّا أنّه لم يكتف بهذه المنافع للتكرار، وإنّما ذكر فوائد ومزايا أخرى من خلال تفسيره للقرآن الكريم، وذلك بحسب نوع التكرار من ذلك تفسيره للآيات التّالية:

قوله تعالى: :**"قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعا فَإِمَّا يَأتِيَنكم مِنِّي هُدى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْف عَلَيهم وَلا هُم يحزنون"**، فقد كرّرت جملة اهبطوا **قلنا اهبطوا** فاحتمل تكريرها أن يكون لأجل ربط النظم في الآية القرآنية من غير أن تكون دالّة على تكرير معناها في الكلام الذي خوطب به آدم فيكون هذا التكرير لمجرّد اتّصال ما تعلّق بمدلول (وقلنا اهبطوا)، وذلك قوله **بعضكم لبعض عدوّ** وقوله **فإما يأتينّكم مني هدى** لم يرتبط كمال الارتباط، ولتوهّم السامع أنه خطاب للمؤمنين على عادة القرآن في التفنن، فلدفع ذلك أعيد **قلنا اهبطوا** فهو قول واحد كرّر مرّتين لربط الكلام...ويسمّى هذا الأسلوب في علم البديع بالترديد"[38].

من خلال تحليله للآية يبدو لنا أهمية التكرار من منظور لسانيات النص، فابن عاشور هنا يرى أن إعادة الجملة تَمّت لوصل ما انقطع أي ربط السابق باللاحق، وهذا الترابط الموضوعي الذي وقع بتكرير الجملة هو الوظيفة الأساسية التي اهتمّت بها اللسانيات النصية تحت اسم الاتّساق المعجمي.

قوله تعالى:**"إِذَا دكَّت الأَرضُ دَكًّا دَكّا وَجَاءَ ربَّكَ وَالملكُ صَفّا صَفّا"**يرى أكثر المفسرين أنّ العرب تكرّر الشيء مرّتين ليُستوعب تفصيله باعتبار المعنى الذي دلَّ عليه اللفظ المكرّر، فإذا قلت بيّنت له الكتاب بابا بابا، فمعناه بيّنته له مفصّلا باعتبار أبوابه[39].

ولابن عاشور التفاتة فَطِنة في هذا النوع من التكرار؛ إذ أنّه يرى من أهمّ فوائد التكرار زيادة على التشويق هو ربط الجمل فيما بينها مما يجعل الكلام متّسق المعنى ليحصل الإجمال ثم التفصيل[40]، أضف إلى ذلك وقوع الكلمتين في نفس القارئ حتى يدرك عظمة الله و هَوْل يوم لا ينفع الإنسان إلا عمله.

فلا تكمن الفائدة هنا في التأكيد لأنّ الثاني لا يثبت ويقرّر معنى الأوّل في ذهن السامع كون المذكور الثاني غير المذكور الأوّل، وقد يُقصد من هذا التكرار أيضا التهويل وما يبعث على التخويف، ولكن في كلا الحالتين نجد جمالا واتّساقا للنظام اللفظي يجعل الآي القرآني مترابطا بعضه بعضا.

الخاتمة:

ختام هذا العمل، وبعد جمهرة من محطّات الدراسات اللغوية من تحليلٍ ومقاربةٍ نصّيةٍ لتفسير الطاهر بن عاشور، من خلال إجلاء آليات الاتّساق التي احتفى بها تفسيره، ننتهي إلى أنّ صاحب هذا التفسير كانت له الأسبقيّة ابن عاشور على العلماء الغربيين في موضوع لسانيات النص، كما أنّ عنايته بالمرتكزات النصية كان بُغية إيضاح المبهم والمشتبه في كلّ الخطاب القرآني.

الهوامش:

[1]- ينظر مدخل إلى علم النص ومجالات تطبيقاته، لمحمد الأخضر الصبيحي، منشورات الاختلاف، الجزائر.ط1 /2008، ص62.

[2]- إشكالات النص، دراسة لسانية نصّية، جمعان بن عبد الكريم، المركز الثقافي العربي- بيروت، ط2009/1، ص 222.

[3]- لسانيات النص مدخل إلى انسجام الخطاب، محمد خطابي، ص 21،

[4]- Introduction aux problèmes de la cohérence des textes. Charolles. M.1978.Cité dans Reboul A.1990.p125.

[5]- النص والخطاب والإجراء، دي بوجراند، ص320

[6]- ينظر النص والخطاب والإجراء، دي بوجراند.ص332

[7]- ينظر علم اللغة النصي، صبحي ابراهيم الفقي، ص 41/1.

[8]- ينظر إشكالات النص-دراسة لسانية نصية-، جمعان بن عبد الكريم ، ص351.

[9]- لسانيات النص، محمد خطابي، ص18-19.

[10]- التحرير والتنوير، الطاهر بن عاشور، ص 219/1.

[11]- المرجع نفسه، ص 219/1.

[12]- المرجع السابق، ص 241/1.

[13]- ينظر المرجع السابق، ص 297/1.

[14]- ينظر التحرير والتنوير، الطاهر بن عاشور، 354/1.

[15]- المرجع السابق، ص 569/1.

[16]- المرجع نفسه، ص 561/1.

[17]- Ellipse et effacement du schème de phrase aux règles discursives, pour Jean-Christophe Pitavy et Michèle Bigot. Publications de l'Université -de Saint-Étienne 2008.p23.

[18]- النّص والخطاب والإجراء، دي بوجراند روبرت، ص 301.

[19]- لسانيات النص لمحمد خطابي، ص22.

[20]- الطاهر بن عاشور، ص321-322.

[21]- بناء الجملة العربية، محمد حماسة عبد اللطيف.القاهرة، دار الشروق، ط1996/1، ص208.

[22]- المرجع نفسه، ص 168/2-169.

[23]- لسانيات النص، مدخل إلى انسجام الخطاب لمحمد خطابي ص21، نقلا عن هاليداي ورقية حسن، ص173.

[24]- ينظر المرجع السابق التحرير والتنوير، ص480.

[25]- النّص والخطاب والإجراء، دي بوجراند روبرت، ص 301

[26]- ينظر المرجع نفسه التحرير والتنوير، ص414.

[27]- دلائل الإعجاز في علم المعاني، لعبد القاهر الجرجاني تحقيق محمود محمد شاكر، مطبعة المدني بالقاهرة، دار المدني بجدة، ط3/ 1992، ص197.

[28]- ينظر إلى علم اللغة لصبحي إبراهيم الفقي، ص 257/1.

[29]- النص والخطاب والإجراء، دي بوجراند، ص346.

[30]- ينظر لسانيات النص، لمحمد خطابي ص23، نقلا عن هاليداي ورقية حس، ص 227.

[31]- التحرير والتنوير، المرجع السابق، ص 350/1-351.

[32]- المرجع نفسه، ص350/1 .

[33]- ينظر نحو النص نقد النظرية وبناء أخرى، عمر أبو خرمة، ص81/1-83.

[34]- التحرير والتنوير، المرجع نفسه، ص 389/2.

[35]- David Crystal ,the Cambridge encyclopedia of language ;p119,

نقلا عن علم اللغة النصي والتطبيق،لصبحي إبراهيم الفقي،ص19/2.

[36]- نظر أبو زنيد عثمان. نحو النص إطار نظري ودراسات تطبيقاته. عالم الكتب الحديث. ط1 2010. ص139.

[37]- التحرير والتنوير للطاهر ابن عاشور، ص 69/1.

[38]- التحرير والتنوير، المرجع السابق، ص 440/1.

[39]- ينظر المرجع نفسه، ص 337/31.

[40]- ينظر المرجع السابق، ص 338/31.